المقدمة

الحمد لله الذي عَلّمَ بالقلم، عَلَّمَ الانسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد، محمد الأمين المختار رحمة للعمالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فإن ظاهرة (القلب المكاني) تعد من الظواهر الصوتية التعاملية في أصوات أبنية الكلمات كالتماثل والادغام والتخالف والاعلال والامالة والاتباع، تهدف الى تحقيق السهولة والتيسير في النطق، غير انها تختلف عن تلك الظواهر في ان التغيّر فيها يقتصر على مواضع ترتيب الأصوات في بنية الكلمة، وليس في ذوات الأصوات واجسامها إذ يلجأ المتكلم الى استعمال ظاهرة القلب المكاني المتمثلة بتقديم بعض حروف الكلمة وتأخير بعضها، في حالة استحالة اللجوء الى التماثل والتخالف والاعلال والابدال والادغام وغيرها من مظاهر تقريب الصوت من الصوت بغية تحقيق الخفة والسهولة في النطق.

وسنقصر البحث على التعريف بظاهرة القلب المكاني وتفسيرها وتعليل وجودها في صوامت كلمات العربية، وأخرج من البحث (القلب الإعلالي) أحد أشكال التغيير في حروف العلة (المصوتات) فضلاً عن الحذف والاسقاط ونقل الحركة مما يدخل في ظاهرة الاعلال المشهورة عند الصرفيين قديماً وحديثاً كقلب الواو والياء همزة في نحو (كساء وقضاء) وقلب الواو والياء ألفاً في نحو (قَوَمَ⇦ قامَ وبَيَعَ ⇦ باعَ) وقلب الواو ياء في نحو (مِوزان وميزان ومِوعاد ميعاد) وقلب الياء واواً في نحو (مُيقن ومُوقن ومُيسر ومُوسر)، وغير ذلك من صور القلب الاعلالي التي أشبعت بحثاً ودراسة من قبل القدامى والمحدثين.

والقلب المكاني من ظواهر الصوتية الشائعة في العربية وسائر اللغات الأخرى، ولاسيما السامية منها.

وسيعتمد هذا البحث على ما كتبَه القدامى من علماء العربية في تحديد هذه الظاهرة وتفسيرها وبيان أحكامها وأدلتها وأسبابها، وأخص منهم أهل اللغة، وأهل التصريف من النحاة، كما أننا سنورد أراء المحدثين وتفسيراتهم لهذه الظاهرة في العربية الفصحى، واللهجات المحلية الدارجة.

وسيقوم هذا البحث على ثلاثة مباحث هي:

1- **التعريف بالقلب المكاني وأحكامهُ وأدلته.**
2- **القلب المكاني في الميزان الصرفي.**
3- **أسباب القلب المكاني.**

أولاً: التعريف بالقلب المكاني وأحكامه وأدلته

القلب في اللغة: التحويل والتصريف، قال الخليل: (القَلْبُ تحويلك الشيء عن وجهه، وكلام مقلوب، وقلبتَهُ فانقلب وقَلّبتَهُ فَتَقَلّب، وقلبتُ فلاناً عن وجهه أي صرفته....)[1].

والقلب في اصطلاح الصرفيين يعني:

1. ابدال حروف العلة والهمزة بعضها مع بعض، فهو أخصُّ من الابدال الذي موضعه الحروف الصحيحة (الصوامت) من بنية الكلمة لا غير.
2. ويطلق كذلك عندهم على تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ويسمى قلباً مكانياً نحو آرام فان أصله أرآم.

وعلامة صحة القلب المكاني ان تكون تصاريف الأصل تامة بأن يصاغ منه فعل ومصدر وصفة، ويكون الآخر ليس كذلك، فَيُعلم من عدم تكميل تصاريفه انه ليسَ بناءً أصلياً[2].

ومن خلال الجمع بين المعنيين: اللغوي والاصطلاحي للفظ (قَلْب) يمكن تعريف القلب المكاني بأنه: تقديم وتأخير يحدث في حروف بنية

الكلمة، يسبب تغيّراً في ترتيب حروفها، لتتولد كلمة جديدة متفرعة من الكلمة الأصلية، توافقها في المعنى وتخالفها في ترتيب حروف المبنى، ومن أمثلة هذه الظاهرة قولهم: (جذبَ وجبذَ، وأنضب وأنبض، وطمس وطسم وأطيّب وأيطب، وصاعقة وصاقعة، وأضمحلَّ وأمضحلَّ.... الخ)[3].

ومصطلح (**القلب المكاني**) عبارة مركبة من كلمتين، الأولى كلمة (القلب) الموصوفة وهي مصدر من الفعل (قَلَبَ) والثانية كلمة (مكاني) وهي وصف يحدد نسبة القلب واضافته الى (المكان) أو (الموضع) وهي تمييز لهذا النوع من القلب من أنواع القلب الأخرى أقصد (القلب الإعلالي) أو (القلب الإبدالي) مما يحدث للأصوات في ذواتها لا في مواقع ترتيبها في الكلمة وقد استقرَّ استعمال هذا المصطلح عند الصرفيين واللغويين في مباحث بناء وتأصيل الألفاظ واشتقاقها.

وعلى وفق هذا المفهوم للمصطلح سيقوم هذا البحث، اذ سيقتصر على القلب في صوامت ابنية صيغ العربية ويخرج ما عداها من انواع القلب الأخرى.

لقد عرفَ علماء العربية القدامى ظاهرة القلب المكاني، إذ أشارَ اليها الخليل[4] (175هـ) وسيبويه[5] (180هـ) والمازني[6] (249هـ) وابن جني[7] (392هـ) وغيرهم من النحاة وأهل التصريف، غير أن اللغويين كانوا أكثر اهتماماً بهذه الظاهرة، إذ صَنّفَ ابن السكيت (243هـ) فيها كتاباً لم يصل إلينا يقول السيوطي (911هـ): (وقد ألّفَ ابن السكيت في هذا النوع كتاباً ينقل عنه صاحب الصحاح.)[8] ومن اللغويين من جمعَ ألفاظ العربية المقلوبة في أبواب وفصول من مؤلفاتهم، نذكر منهم أبا عبيد: القاسم بن سلام[9] (224هـ) الذي عقد باباً للمقلوب في غريبه، ومثله فعل ابن قتيبة[10] (276هـ) في أدب الكاتب، وابن دريد (321هـ) في الجمهرة[11] وابن سيده (458هـ) في مخصصه[12] والسيوطي (911هـ) في مزهره[13] وأنفرد ابن درستويه (347هـ) برأي مخالف لجمهور علماء العربية إذ انكر

القلب المكاني وأبطل وجوده في كتاب وسمه بـ(إبطال القلب) وقد أشار الى مذاهبه هذا في كتابه: (تصحيح الفصيح) إذ قال: (وأما البطِّيخ ففاكهة معروفة، وهي بكسر الأول وتشديد الثاني على بناء (فِعّيل) وهي عربية محضة، وفيها لغة أخرى وهي الطِبّيخ– بتقديم الطاء وليست عندنا على القلب كما يزعم اللغويون، وقد بيَّنا الحجة في ذلك في (إبطال القلب))[14]. ويفهم من كلامه أن (البطيخ والطبيخ) هما لغتان وليس احدهما مقلوباً عن الآخر.

وعنى الباحثون المحدثون من عرب ومستشرقين بظاهرة القلب كذلك وخصصوا لها حيزّاً من مؤلفاتهم محاولين تفسيرها تفسيراً علمياً بوساطة وسائلهم الحديثة في البحث اللغوي، وسوف أشيرُ الى أفكارهم وآرائهم في محاور هذا البحث (إن شاء الله تعالى).

لقد لاحظتُ في كلام علماء العربية في تفسيرهم لهذه الظاهرة تركيزهم في فكرة الأصل والفرع في بنية الكلمة؛ لأن الحكم بوجود القلب في لفظين يقتضي تحديد الأصل فيهما ليتسنى معرفة صورة القلب، ونوع التقديم والتأخير في حروف اللفظ المتفرع من الأصل.

وأهم طرق تحديد الأصل لديهم هي:

الرجوع الى المصدر: فما له مصدر مستعمل في كلامهم هو الأصل، وما ليس له مصدر مستعمل هو الفرع، وفي ذلك ينقل السيوطي عن علم الدين السخاوي (643هـ) في شرحه لكتاب المفصل للمزخشري (538هـ) قوله: (إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدراً، لئلا يلتبس بالأصل، بل يقتصر على مصدر الأصل، ليكون شاهداً للأصالة نحو يَئِسَ يأساً، وأيسَ مقلوب منه، ولا مصدر له، فاذا وُجِدَ المصدران حكمَ النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل، وليسَ احدهما بمقلوب عن الآخر نحو جبذَ وجذبَ، وأهل اللغة يقولون: (إن ذلك كله مقلوب.)[15].

ومما يستدل به على الأصل والفرع في الألفاظ المقلوبة: كثرة الاستعمال؛ لأن الأكثر استعمالاً من اللفظين هو الأصل، والأقل هو الفرع، وهذا ما قصدَه ابن عصفور الأشبيلي (669هـ) في قوله: (أن يكون أحد النظمين أكثر استعمالاً من الآخر، فيكون الأكثر استعمالاً هو الأصل والآخر مقلوباً منه نحو (لعمري) و(رعملي) فان (لعمري) أكثر استعمالاً فلذلك عُدَّ الأصل.)[16].

ويعرف القلب في الجمع المكسر بالرجوع الى مفرده، لتحديد الأصل وتنظيم حروفه، والمقدّم والمؤخر في اللفظ المقلوب عنه، وأمثلة ذلك (أشياء وآبار وقِسِيّ) فالأول مفرده شيء وجمعه شيئاء كحمراء في الأصل ثم تقدمت اللام على فاء الكلمة فصارت (أشياء) على وزن (لفعاء) وإنما عدلوا عن وزنها (أفعال) الى وزن (فعلاء) بالقلب؛ لأن أشياء ممنوعة من الصرف[17]، و(آبار) مفردها (بِئْر) على وزن (فِعْل) فالهمزة عين الكلمة، وترتيبها ان تكون بعد الباء فيكون قياس جمعها على (أبآر) ووزنها (أفعال) في الأصل فجرى تبادل بين الهمزة والباء في المواقع فصار وزنها (أعفال)7 و(قِسِيّ) مفردها (قَوْس) على وزن (فَعْل) وتجمع على (قُوُوس) على وزن (فُعُول) ثم صارت (قسوو) بتقديم اللام على العين ثم صار (قسوي) بقلب الواو الثانية ياء لاجتماع الأمثال أقصد واوين وضمتين وتصير (قِسِيّ) بقلب الواو الأولى ياء وادغامها في الياء بعدها فصارت (قِسِيّ) على وزن (فلوع)[18].

وينبغي الإشارة هنا الى مسألة مهمة في القلب المكاني كانت مثار خلاف بين البصريين والكوفيين، وهي السعة في التصرّف فاذا تساوى اللفظان في التصرّف، أُيُعَدُّ كل منهما أصلاً وينتفي القلب أم أن أحد اللفظين مقلوب عن الآخر؟

فالبصريون ينفون وجود القلب في نحو (جذبَ وجبذَ) ويرون أنهما لغتان إذا كانا كاملي التصريف يقول ابن جني: (فما تركيباه أصلان لا قلب

فيهما قولهم: جذبَ وجَبَذَ ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه، وذلك انهما جميعاً يتصرّفانِ تصرفاً واحداً نحو جذبَ يجذبُ جذباً، فهو جاذب والمفعول مجذوبٌ، وجبذَ يجبذُ جبذاً فهو جابذ والمفعول مجبوذ، فان جعلت أحدهما أصلاً لصاحبه، فسدَ ذلك لأنك لو فعلته لم يكن احدهما أسعدُ بهذه من الأخرى..... فان قَصُرَ احدهما عن تصرّف صاحبه، ولم يساوه فيه كان أوسعهما تصرّفاً أصلاً لصاحبه.)[19].

أما الكوفيون فأنهم قد وَسّعُوا مدلول القلب المكاني وعَدُّوا ما أنكره البصريون قلباً وفي ذلك يقول أبو جعفر النحاس (338هـ): (شاكي السلاح بمعنى شايك ثم أخّرَ الياء كما قال الله عز وجل ﴿**عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ**﴾ [التوبة109/9] أي هائر، وهذا هو القلب الصحيح عند البصريين، وأما ما يسميه الكوفيون القلب نحو جَبَذَ وجذبَ فليس هذا بقلب عند البصريين وانما هما لغتانِ، وليس بمنزلة شاكٍ وشائك...)[20].

ويبدو ان ما ذهبَ اليه الكوفيونَ هو الأقرب الى حقيقة القلب مما ذهب اليه البصريون، لأن ظاهرة القلب غير قياسية في أكثر حالاتها، وتعتمد على السماع وكثرة الاستعمال والشيوع، إذ (أن بعض الكلمات المقلوبة، بعد أن تشيع على الألسنة، تأخذ مجراها الطبيعي في اللغة باستعمال باقي المشتقات منها.)[21].

وأيد الرضي الاستراباذي (686هـ) صحة ادلة معرفة القلب المتمثلة بالرجوع الى الأصل (المصدر أو المفرد) وسعة التصرف وكثرة الاستعمال غير انه تحفظ على دليل كثرة الاستعمال لكون الصيغة المقلوبة المتفرعة عن الأصلية أكثر استعمالاً من الأصل كما في (الحادي والجاه والقسيّ) وفي ذلك يقول: (ويصحُ أن يقال: إنّ جميع ما ذكر من المقلوبات يُعْرَفُ بأصله، فالجاه والحادي والقسيّ عرف قلبها بأصولها وهي الوجه والوحدة والقوس، وكذا أيسَ ييأسُ باليأس وآرام وآدُر برِئْمٍ ودارٍ، فانَ ثبت لغتان بمعنى يُتَوَهَّمُ فيهما القلبَ، ولكل واحدة منهما أصل كجذبَ جَذْباً وجبذَ جبذاً؛

198

لم يحكم بكون إحداهما مقلوبة من الأخرى، ولا يلزم كون المقلوب قليل الاستعمال، بل قد يكون كثيراً كالحادي والجاه، وقد يكون مرفوض الأصل كالقِسيّ، فان أصله– أعني القُوُوسَ غير مستعمل)[22].

وظاهرة تبادل المواقع بين أصوات ابنية الكلمات أو القلب المكاني ليست مقصورة على اللغة العربية بل عرفت في اللغات الأخرى ومنها الحبشية والعبرية والسريانية والآرامية يقول كارل بروكلمان: (وفي الحبشية يحدث القلب المكاني بين الصوت الشفوي وصوت الصفير، كما يحدث بين الصوت الغاري وصوت الصفير.... وفي العبرية يحدث القلب المكاني بين الأصوات المائعة، كما يحدث بين الصوت المائع والحركة، وفي الآرامية يحدث بين الصوت الشفوي وصوت الصفير..)[23] ومثل لذلك بألفاظ من هذه اللغات.

ثانياً: القلب المكاني في الميزان الصرفي

الميزان الصرفي: مقياس افتراضي وضعه أهل التصريف لمعرفة عدد حروف الكلمة وترتيبها، وما فيها من أحرف أصول وزائدة، والمتحرك من حروفها والساكن، وما يعتد بها من تغيير بالصحة والاعلال، والادغام والابدال والقلب وغيرها من مظاهر التحويل في أبنية الكلمات، ويتألف الميزان من مادة ثلاثية الأصول (ف ع ل) أي فاء الكلمة وعينها ولامها، فما زاد عليها زيادة أصلية كما في الرباعي والخماسي زيد عليها لام أو لامين كما في (بعثرَ وسفرجل) فالأول على زنة (فعللَ) والثاني على زنة (فَعَلّل).

أما إذا كانت الزيادة في حروف (سألتمونيها) بقي الزائد منها على لفظه نحو (انكسرَ على زنةفعلَ) وكوثر على زنة فوعل، وعلَ مَ على زنة فَعّلَ، واحمرَّ على زنة افعلَّ، واستنصر على زنة استفعلَ....).

واذا كان في الموزون حذف، فينبغي حذف ما يقابله في الزنة نحو (يَعِدُ على زنة يعل، وقُلْ على زنة قُلْ، وقَاضٍ على زنة فاعٍ...).

أما إذا حدث تبادل في مواقع حروف الكلمة بالتقديم والتأخير قُلِبَ ما يقابله في الزنة، ولا يمكن معرفة القلب إلا بالرجوع الى أصل الكلمة ووزنها قبل القلب، إذ يمكننا بعد تحديد فاء الكلمة وعينها ولامها، تمييز صور القلب في الكلمة[24]، فإما ان يكون القلب بتقديم لام الكلمة على عينها كما في (ناءَ المقلوب عن نأى) فيكون على زنة (فلعَ)4 وأما بتقديم العين على الفاء نحو (جاه المقلوب عن وجه) فيكون على زنة (عفل) ومنه الجمع المكسر (آبار4 وآراء) فان مفردهما (بِئْر) و(رأي) وزنتهما: اعفال.

وقد تكون صورة القلب قليلة الاستعمال أو نادرة كما في تقديم اللام في الفاء في (اشياء) وأصلها (شيئاء) على زنة (الفعاء).

وتأخير الفاء بعد اللام نحو (الحادي) واصله (الواحد) وزنته على (عالف).

ويبدو ان المقلوب من كلمات العربية ليس مقبولاً كله عند أهل التصريف، وما يسمى مقلوباً عند الصرفيين: ما انقلبَ وزنه بانقلاب ترتيب حروف صيغته كقولهم في وزن أشياء: لفعاء مقلوبة من شيئاء، أما ما لا ينقلب وزنه بانقلاب نظم صيغته فانهم لا يسمونه مقلوباً وان كان في ترتيب حروفها تقديم وتأخير يقول ابن السيد البطليوسي (521هـ) (وليس جميع ما ذكره [ابن قتيبة] مقلوباً عند أهل التصريف من النحويين، وإنما يسمى مقلوباً عندهم ما انقلبَ تفعيله [وزنه] بانقلاب نظم صيغته كقولهم في أشياء أنها لفعاء مقلوبة من شيئاء وفي سأى انه مقلوب من ساءَ، أما ما لا ينقلب تفعيله بانقلاب نظم صيغته، فانهم لا يسمونه مقلوباً، وان كانت حروفه قد تَغيَّرَ نظمها....)[25].

ولعل ما وردَ في قلب مكاني من الكلمات لعلة تصريفيه هو القلب القياسي عندهم، وقد ذكروا لذلك أمثلة عدة منها: أشياء وآبار وآراء، وجائي

200

وشاكي، ولاثٍ وهاع ولاعٍ وقِسِيّ وعِصِيّ، وناء وجاه وأيس، وحادي[26] ونذكر فيما يأتي تعليلات أهل التصريف لهذه الألفاظ:

1. في تعليل لفظ (أشياء) ذكر سيبويه في باب ما الهمزة فيه من موضع اللام في بنات الياء والواو قوله (وكان أصل أشياء شيئاء فكرهوا منها مع الهمزة مثل ما كره من الواو وكذلك أشاوى أصلها أشايا كأنك جمعت عليها إشاوة، وكأن أصل إشاوة شيئاء ولكنهم قلبوا الهمزة قبل الشين وأبدلوا مكان الياء الواو.)[27]، وفي جمع (ناقة) على (أينق) قال في أصل الجمع (أن تجمع على أنوق بابدال الألف عين الكلمة واواً، إلا أن العرب في جمعها قالوا: أينق فابدلوا الياء مكان الواو وقلبوا.)[28].

ونقل الرضي عن الخيل وسيبويه ان وزنها (لفعاء) لأن أصلها (شيئاء) فقدمت اللام على الفاء كراهية اجتماع همزتين بينهما حاجز ضعيف (الألف) مع كثرة استعمال هذه اللفظة.

ويرى الكسائي: ان أشياء جمع (شيء) أي على زنة (أفعال) كبيت وأبيات ومُنِعَ صرفه توهما كحمراء[29].

2. في بناء اسم الفاعل من (جاءَ يجيء وساءَ يسوءُ وشاء يشاءُ) قال المبرد (285هـ): (اعلم أنك إذا بنيت من شيء من هذه الافعال اسماً على فاعل اعتلّ موضع العين منه فهمز على ما وصفت لك في قائل وبائع، فاذا همزت العين التقت هي واللام التي هي همزة فلزم الهمزة التي هي واللام التي هي همزة، فلزم الهمزة التي هي لام القلب الى الياء لكسرة ما قبلها.... فهذا قول النحويين أجمعين إلا الخليل بن أحمد فانه كان يقول: قد رأيتهم يفرون الى القلب فيما كانت فيه همزة واحدة استثقالاً لها فيقدمون لام الفعل، ويؤخرون الهمزة التي هي عين فيما لا يهمز فيه غيرها ليصير العين طرفاً فيكون ياء وذلك قوله: لاثٍ به الأشاء والعبريّ.)[30].

201

3. وفي تعليل القلب في (قِسَيّ) قال ابن السراج (316هـ): (ونقول في قِسَيّ أصله فُعول وكان حقه قُوُوس ولكن قدموا اللام على العين وصيره فُلُوع.)[31].
4. وفي تأخير الفاء على موضع اللام في لفظ (حادي) على وزن (عالف) نقلَ أبو علي النحوي (377هـ) عن ثعلب (391هـ) قوله: (وقال احمد بن يحيى: واحد وأحد ووحد بمعنى، والحادي عشر كأنه مقلوب الفاء الى موضع اللام.)[32].
5. وفي جمع اسم الفاعل من الاجوف المهموز اللام على صيغة الجمع (فواعل) نقول في جمع (شاءٍ وجاءٍ): (شواءٍ وجَوَاءٍ) والأصل فيها قبل القلب المكاني والحذف (شوائيء وجوائيء) فحدث القلب ولزم الهمزة الثانية التغيير والإبدال الى ياء لانكسار ما قبلها فصارا (شوائي وجوائي) على زنة (فوالِع) ثم اعتلا اعتلال قاضٍ، بحذف آخرهما فصار وزنهما على (فوَالٍ)[33].

202

ثالثاً: أسباب القلب المكاني

لقد عنى القدماء والمحدثون بظاهرة القلب المكاني واجتهدوا في تفسيرها وتحليلها، وحصروا أسبابها بما يأتي:

أ. الضرورة الشعرية والاتساع في اللغة يقول ابن عصفور: (فالمقلوب على قسمين: قسم قُلِبَ للضرورة نحو قولهم شواعي في شوايع في الشعر قال[34]:

وكـــأنَّ أولاهـــا كِعـــابُ مقـــامِرٍ ضُـرِبت علـى شُـزْن فهُـنَّ شـواعي

يريد: شوائع أي متفرقات.... وقسمٌ قُلِبَ توسعاً من غير ضرورة تدعو اليه، لكنه لم يطرد عليه فيقاس.... ولا يمكننا استيعاب ما جاء في ذلك هنا لسعته.)[35].

ب. طلب الخفة في اثناء نطق همزتين في طرف الكلمة: إنّ النطق بهمزتين في طرف الكلمة أمرٌ مستكره ومستثقل في كلام العرب، لذا يلجأ العربي الى التخلص من هذا الثقل بتخفيف احدى الهمزتين بابدالها ألفاً أو واواً أو ياء أو بحذفها واسقاطها أو بنطقها بين بين، أما في اسم الفاعل من الاجوف المهموز اللام، فإنّ التخفيف يكون بالقلب المكاني، اذ تقدم الهمزة على الياء في (جائي وشائي)[36] وقد تحذف الياء وتصير جاءٍ وشاءٍ.

ج. علل أكثر اللغوين ظاهرة القلب المكاني باختلاف اللهجات العربية، فالبصريون يعدّون نحو (جذبَ وجبذَ، والبطيخ والطبيخ، واضمحلَّ وامضحلَّ، وصاعقة وصاقعة، وطمسَ وطسمَ وغيرها) من باب تداخل اللغات إذا تساوى اللفظان في التصرف وكثرة الاستعمال[37].

أما **المحدثون** من باحثي العربية، فانهم وافقوا القدامى من علماء العربية في بيان أسباب هذه الظاهرة، وعَبّروا عن أفكار القدامى بمصطلحاتهم الحديثة، اذ عَدّ بعضهم القلب من روافد اغناء اللغة ومَدّها

بألفاظ جديدة تسهم في اتساعها، وهو ما رآه الأب انتستاس الكرملي اذ عَدّ القلب من موسعات اللغة[38]، وقال في كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها): (والمراد بـ(تكامل اللغة واكتمالها) تقلب أحرف تركيبها وإفادة معنى جديد واشتقاق جديد، في جميع الأوجه، وقد يكون قلب ولا يكون سائغاً، فلا يشتق منه شيء ؛ لأن ذوق العرب لا يستسيغه، ويأبى أن يبقيه على لسانه، لغرابته أو لشناعته، فينبذه عنه نبذاً قصياً، لاندمَ فيه ولا سدم مثال ذلك قولك، (مدحَ) نشتق منه: مَدَّحَه وتمَدّحه8 وامتدحه والمدح والمديح والأمدوحه والممدوح، فاذا قلبته قلت: حَمّد ومنه: حمدَهُ وحَمّدَ الله وأحمدَ الرجل، وتحمد به الحماد والحُمادَى والحُمادى والحمد والحمَدَهَ... الخ.)[39].

ويفهم من كلام الكرملي أنه لا يقر بنظرية الأصل والفرع في القلب التي تفضي الى ان الأصل هو الأقوى في التصرف وكثرة الاستعمال؛ لاحتمال ان يكون الأصل أقل استعمالاً وقبولاً من الفرع لثقله وصعوبته على لسان العربي، فينبذه ويتركه.

ويرى أكثر المحدثين ان السبب الأساس في حدوث ظاهرة القلب المكاني يرجع الى ميل المتكلم لبذل أقل جهد ممكن في النطق مثله في ذلك مثل ظاهر تقريب الأصوات بعضها من بعض بالتماثل والتخالف والادغام والامالة والاتباع (التوافق الحركي)[40]؛ بغية تحقيق الخفة والسهولة في النطق، وفي هذا يقول الدكتور أحمد مختار عمر: (وقد يقع القلب بغية التيسير وتحقيق نوع من الانسجام الصوتي كما في (طمسَ) التي قلبت الى (طسمَ) حتى لا يفصل بين الطاء والسين (وهما متقاربا المخرج بالميم)[41]. والى ذلك ذهبَ الدكتور رمضان عبد التواب اذ قال: (والقلب المكاني هو عبارة عن تقديم بعض اصوات الكلمة على بعض لصعوبة تتابعها الأصلي على الذوق اللغوي، وهي ظاهرة يمكن تعليلها بنظرية السهولة والتيسير كذلك.)[42].

204

والباحث يميل الى عدّ نظرية السهولة والتيسير من أهم أسباب وجود ظاهرة القلب المكاني؛ لميل المتكلم الى ابتغاء الخفة في النطق، والتخلص من ثقل الكلام بشتى السُبُل.

ولو حاولنا تفسير ميل الأصوات الى تبادل مواقعها في السلسلة الكلامية اعتماداً على هذه النظرية من خلال تفسير حدوثها **باستعمال ثلاثة معايير:**

الأول: التقارب المخرجي.

الثاني: التقارب في الصفات الصوتية.

الثالث: نظرية الصوت الأقوى.

فإننا سنحصل على نتائج مقبولة في تفسير وجود هذه الظاهرة في الكثير من الألفاظ المقلوبة، وسيكون تحليل أمثلة القلب من صورتي: تقديم اللام على العين، وتقديم العين على الفاء لكثرة ورودهما في كلام العرب بالقياس على صورتي: تقديم اللام على الفاء في (اشياء) وصورة تأخير الفاء عن اللام في (حادي) لقلتهما وندرتهما في كلامهم، وسوف أقنع بتحليل القدامى لهاتين الصورتين لشهرته في مؤلفاتهم.

فمن صورة تقديم اللام على العين أخترتُ الأمثلة الآتية[43]:

جبذَ مقلوب عن جذبَ، ونغزَ مقلوب عن نزغَ شاكي مقلوب عن شايك، وجائي مقلوب عن جائي، وشواعي مقلوب عن شوائع، وطسمَ مقلوب عن طمسَ، وأيطب مقلوب عن أطيب، وصواقع مقلوب عن صواعق... الخ.

ففي (جبذَ) تقدمت الباء على الذال لتكون قريبة من صوت الجيم المماثل لها في صفتي الجهر والشدة (الانفجار)؛ ليكون عمل اللسان من وجه واحد من جهة الصفات وقد أيدّت الدراسة الحديثة صحة ما ذهبنا اليه في احدى طرقها الاحصائية باستعمال الحاسوب، اذ ظهرَ ان السلسلة الصوتية (ج ذ) من الكلمة (جذب) لها نسبة شيوع (8 مرات) والسلسلة (ذ

ب) في الآخر (5 مرات) في حين ان شيوع السلسلة (ج ب) (11 مرة) وشيوع السلسلة (ب ذ) في الآخر (9 مرات)[44] 4 وهذا يدل على ان السلسلة (ج ب) أخف في النطق من السلسلة (ج ذ).

وفي (نغزَ) المقلوب عن (نزغَ) تقدمت الغين على الزاي؛ ليفصل بين صوتي: النون اللثوي، والزاي الاسناني اللثوي المتقاربين في المخرج وصفة الجهر، بصوت الغين الحلقي الأبعد في المخرج عنهما، اذ كلما تباعدت المخارج في حروف بنية الكلمة خفت في النطق.

وفي (شاكي وجائي وشواعي) يفرُّ المتكلم الى القلب بتقديم اللام وتأخير الهمزة التي هي عين الكلمة في نظر القدامى ليسهل تخفيفها بقلبها ياء، ابتغاء الخفة في النطق [45].

وفي (أيطب المقلوب عن أطيب) ثقل على الناطق الجمع بين صوتين شديدين (انفجاريين) هما الهمزة والطاء ففصل بينهما في الصيغة المقلوبة بحرف لين يسير في النطق أقصد (الياء).

وفي (طسمَ المقلوب عن طمسَ) فَضَّلَ المتكلم القلب حتى لا يفصل بين الطاء والسين المتقاربين في المخرج بالميم الشفوية.

وأما في (صواقع المقلوب عن صواعق) فإنَّ القاف تقدّمَ على العين تحت تأثير الصاد المطبق المفخم، ليعمل اللسان في التفخيم من وجه واحد.

وفي الصورة الثانية من صور القلب المكاني تُقدّم عين الكلمة على فائها ومن أمثلتها (أَيسَ مقلوب عن يَ□ وطفسَ مقلوب عن فطسَ وجاه مقلوب عن وجه) واشباهها فانه يمكن تعليل حدوث القلب المكاني فيها اعتماداً على فكرة الصوت الأقوى التي قال بها علماء العربية، ومضمونها أنه إذا اجتمعت أصوات متقاربة المخرج في بنية كلمة ما، فانه يقدم الصوت الأقوى الأثقل في النطق منها على الأضعف الأخف؛ ليتحقق التوازن والتيسير في الكلام[46].

وعلى ما تقدم يفضل المتكلم تقديم الهمزة في (أيس) على الياء لقوة الهمزة في النطق وثقلها مقارنة بالياء الخفيفة في النطق، لأن المتكلم في بدء كلامه يكون أكثر نشاطاً وأقوى نفساً، والكلام نفسه ينطبق على تقديم الطاء القوية بالجهر والشدة والاستعلاء والاطباق والتفخيم على الفاء الأضعف بالهمس والرخاوة في (طفسَ المقلوب عن فطسَ) وكذلك في (جاه) تقدمت الجيم على (عين الكلمة) القوية بالجهر والشدة على حرف العلة الضعيف بالاعلال والتغيير والخفاء.

وثمة أسباب أخرى لوجود القلب المكاني ذَكرَها المحدثون منها: اختلاف اللهجات، وقد اشار اليه القدامى في (لعمري ورعملي) و(صواعق وصواقع) إذ عَدّوها من لهجة تميم[47] كما أننا نلمسُ شيوع هذه الظاهرة في اللهجات العامية المعاصرة في بلادنا العربية، فالعراقي يقول: (زميج) في (مزيج) للخليط من التراب والسماد و (نعلة) في (لعنة) و(دحقَ) في (حَدَقَ) في لهجة الموصل، والسوري يقول: (كبزرة) في (كزبرة) و (رعبون) في (عربون) والسوداني يقول: (عنجة) في (نعجة) و (داير) في (رايد) بمعنى (مريد) والمغربي يقول: (نَوْل) في (لَوْن) و(سِدَّاج) في (سَجّاد) والمصري يقول: (فَحرَ) في (حفرَ) و(أنارب) في (أرانب) و (جواز) في (زواج) و (أهبل) في (أبله)[48].

وقد يكون سبب القلب في الأمثلة الآنفة الذكر الخطأ في النطق والسمع، اذ يلاحظ ان أكثر الأمثلة المقلوبة إما تكون ثقيلة في النطق يفر منها العوام والأطفال الى صيغة أخف وأيسر بالقلب، وأما انها كلمات دخيلة على العربية ينفر منها الذوق العربي كقولهم: (مرسح) في (مسرح) و(قماويس) في (قواميس) و(هلتر) في (هتلر)[49].

الخاتمة

ونختم بحثنا هذا بذكر ما خلص اليه من خصائص واستنتاجات تخصُّ هذه الظاهرة وأهمها:

1. ان القلب المكاني من الظواهر الصوتية التعاملية في أكثر لغات العالم القديمة والحديثة ولاسيما السامية منها، التي تهدف إلى تحقيق الجهد الأقل في النطق كغيرها من ظواهر تقريب الصوت من الصوت بغية الخفة والسهولة في النطق كالتماثل والادغام والتخالف والاعلال والابدال والامالة واشراب الصوت بصوت آخر والاتباع (التوافق الحركي)، غير انها تختلف عن تلك الظواهر في ان القلب المكاني يقتصر التغيير فيه في مواقع ترتيب حروف الكلمات بالتقديم والتأخير، وليس فيه تغيير في ذوات الحروف واجسامها كما يحدث في الظواهر المشار اليها آنفاً.
2. تَبينّ ان القلب المكاني من الظواهر التي تحدث في مواضع بعينها في الكلمات، وهي ظاهرة تعتمد السماع في أكثر حالاتها وتكون قياسية في حالات قليلة ذكرها علماء العربية ومنها: في اسم الفاعل من الفعل الأجوف المهموز اللام نحو (جائي وشائي وشاكي ولاث...) وفي المقلوب من الجمع المكسر نحو (أشياء وقسيّ وشوائع وأينق وآرام وآبار...) مما يدل على أن أكثر القلب القياسي يكون في المعتل والمهموز كما ذهب الرضي الاستراباذي.
3. ميزّ البحث بين نوعين من القلب: التصريفي الذي له أصل وفر متوافقان في المعنى بشكل كامل، والثاني: القلب الذي ينشأ من تقاليب الجذر الواحد، وهو ليس له من سبب الا التوّسع في اللغة واغناء ألفاظها.
4. أظهر البحث أننا نستطيع ان نعلل وجود ظاهرة القلب المكاني في الصوامت، في قسم كبير من الألفاظ المقلوبة اعتماداً على ثلاثة معايير هي: التقارب المخرجي بين الصوامت المتجاورة في تراكيبها، والتقارب

فـي صـفاتها الصـوتية، والثالـث: نظريـة الصـوت الأقـوى، وتـأثيره فـي الصوامت المجاورة له في التشكيل الصوتي.

والله ولي التوفيق

هوامش البحث

(1) العين: 171/5.

(2) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون: 1171/3.

(3) ينظر: المزهر في علوم العربية: 476/1.

(4) الكتاب: 377/4 وينظر: المنصف: 93/2.

(5) الكتاب: 467/3.

(6) المنصف: 94/2 101 104.

(7) الخصائص: 69/2-82.

(8) المزهر في علوم العربية: 476/1.

(9) الغريب المصنف: 647/3 – 654.

(10) أدب الكاتب / 175-176.

(11) جمهرة اللغة: 431/3.

(12) المخصص: 27/14-28.

(13) المزهر: 476/1-481.

(14) تصحيح الفصيح وشرحه / 313.

(15) المزهر: 481/1.

(16) الممتع في التصريف: 617/2.

(17) المنصف: 94/2.

(18) شذا العرف في فن الصرف / 22.

(19) الخصائص: 69/2-70.

(20) شرح القصائد التسع المشهورات: 339/1- 340، وينظر: المزهر: 481/1.

(21) التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه / 60.

209

[22] شرح الشافية الرضي: 24/1.

[23] فقه اللغات السامية /81، وينظر: التطور النحوي / 36.

[24] ينظر: شرح شافية ابن الحاجب للرضي: 21/1 – 22.

[25] الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: 257/2.

[26] شرح الشافية للرضي: 21/1.

[27] الكتاب: 564/3.

[28] المصدر نفسه 564/3 و 380/4.

[29] ينظر: شرح الشافية: 29/1.

[30] المقتضب 115/1.

[31] الأصول في النحو 336/2.

[32] التكملة: 259 – 260، وينظر: الخصائص: 78/2.

[33] ينظر: الكتاب: 58/2.

[34] هو الأجدع بن مالك الهمذاني، والبيت في الأصمعيات / 65، والمنصف 575/2 والشزن: الكعب الذي يلعب به، والبيت في وصف خيل مغيرة.

[35] الممتع في التصريف 615/2 – 616.

[36] ينظر: الكتاب: 377/4 و 380، والمنصف: 53/2، وشرح شافية ابن الحاجب للرضي: 24/1.

[37] ينظر: المزهر في علوم العربية: 476/1 و 481.

[38] نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها / 16.

[39] المصدر نفسه / 120.

[40] ينظر: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث / 65.

[41] دراسة الصوت اللغوي /336.

[42] التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه / 57.

[43] جرى اختيار الأمثلة من كتاب المزهر في علوم العربية: للسيوطي لأنه أورد أكثر الألفاظ المقلوبة التي ذكرها من سبقه من علماء العربية في مؤلفاتهم، ينظر: 476/1– 481.

[44] ينظر: المقتضب: 115/1.

[45] ينظر: دراسة الصوت اللغوي /336.

210

(46) ينظر: مفهوم القوة والضعف في اصوات العربية: 43. وأكثر من عنى بهذه الفكرة من علماء العرب ابن جني ينظر: الخصائص: 55/1.

(47) ينظر: المزهر: 277/2 واللسان: (صقع) 68/10.

(48) ينظر: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه / 59 – 60.

(49) ينظر: دراسة الصوت اللغوي / 336.